

المسافة الجمالية في السرد القرآني

د. بن نعمة عبد الغفار

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

- جامعة وهران -

الملخص:

في هذا المقال وقفة تحليلية لما يعرف بالمسافة الجمالية في السرد القرآني، فيها تعرض الباحث، ماهية المسافة الجمالية، علاقة المسافة الجمالية بوظائف الخطابي القرآني، وكذلك العلاقة بين المسافة الجمالية والقطع المفاجئ في القصص القرآني، وكذلك علاقتها مع قضايا الغيب، ومما خلص إليه الباحث أ، المسافة الجمالية قد تأسست قواعدها في الدراسات البيانية، وظهرت ملامحها في ثنايا القصص القرآني الكفيل بالكشف عن مفاجآت جديدة في كل قراءة جديدة، قد تصل إلى كونها ظاهرة فنية مرموقة في القصص القرآني، وهي بحاجة إلى تحليل وتمييز، لضمان الجمع بين قداسة النص القرآني، وبين خصائصه البيانية والفنية.

الكلمات المفتاحية: القرآن، السرد، الجمالية، الخطاب، السياق، التوقع.

مقدمة:

تشير بعض الدراسات الأسلوبية في مجال الأدب إلى مسألة التعارض بين ما يقدمه النص وبين ما يتوقعه القارئ، وهي خطوة أدبية جريئة بالنسبة للمتلقي في معرفة القيمة الجمالية للنص، تعمل على تنمية مهارات التلقي في التفاعل مع النص، في حال كون المنتظر إيجابيا، وعلى ضعفه . التفاعل . في حال كون المنتظر سلبيا، ولأجل تجسيد هذه المسألة تشير مختلف الدراسات الأسلوبية والبيانية والأدبية إلى الحديث عن قضية أفق التوقعات الذي يتحدد بعمق في انسجام النص مع أفق توقع القارئ من عدمه، وعلى صعيد متميز في عمق الدراسات البيانية في القرن السابع أبدى القرطاجني تحمسا للحديث عن الاستغراب كحركة للنفس يقوى انفعالها وتأثيرها في حال اقترانها بحركتها الخيالية.

إن الحديث عن المسافة الجمالية هو حديث عن واحد من أساليب الخطاب القرآني لا من جهة كونه نصا أدبيا، بل من جهة فاعليته في إثارة المتلقي ذهنيا، لانتظار المتوقع وغير المتوقع، وما تخلفه النتيجة من لذة أدبية في حال التوافق، وعليه فإن مسألة المسافة الجمالية في التلقي أضحت في الخطاب القرآني ظاهرة تشغل حيزا وافرا، تسري في عمق لاكتشاف العلاقة التواصلية بين النص والمتلقي، من خلال أسلوبية العرض التي تظهر بجلاء في القصص القرآني، والذي يؤدي فيه عنصر المفاجأة مسلكا مهما، ذلك أن المفاجأة في الأحداث تلامس المتوقع وغير المتوقع من خلال الأحداث والشخصيات يحاكي الخطاب القرآني في تعبيره فاعلية ملموسة، يمكن استشعارها من خلال القراءات الأولى للنص، ربما يتطلب غير المتمرس في الأساليب الأدبية والبلاغية واللغوية وقتا مميّزا لتحديددها، لكنها مسألة لم تكن العرب الأوائل في الاعتراف بها ولو قدر أئمة.

إن الحديث عن الخطاب القرآني هو حديث عن خطاب نادر لن يتكرر مرة أخرى باعتباره خاتما، لكنه من وجهة نظر أخرى فهو يستوعب قدرا غير متناهي من الأساليب التي يغطيها الأدب العربي، وهو الحك الذي جعله عاليا فارضا لنفسه بقضايه وأساليبه.

لا مجال يعتد به في الحديث عن اقتصار جزء من الخطاب القرآني على زمن دون غيره، فهو فاصل مميز من جهات متعددة، فذاته الخطاب كان سالبا للعقول العربية بعد نبوغها في أدق الأساليب الأدبية والعربية في بدء النزول، وذاته الخطاب كان معتمدا لدى العقول العربية في أدق تعابيرها وأساليبها بعد النزول، ولا تزال تراكيبه تقدم علوا مستمرا في التعابير تترجم مقولة كتاب العربية الأكبر.

إذا عمدنا إلى كتب اللسانيات الحديثة نجد الخطاب القرآني وسيلة مهمة في تحديد العديد من العلاقات الذوقية والنفسية بين النص وقارئه، قد يعتمد الجهد الأكبر فيها على المتلقي الذي يحتاج النص أولا، ثم يحتاجه النص لبلوغ الهدف الأسمى وهو الهداية والإرشاد.

تعتمد هذه المداخلة في أساسها إلى تحليل هذا النمط من العلاقات، ومحاولة تمييز المسافة الزمنية التي تربط الجانبين، وهي في فحواها قضية جمالية محضنة تعددت مواطنها في الخطاب القرآني، وهي كفيلة بوضع القارئ أمام قرار نهائي إزاء النص بين قبوله أو رفضه.

تعريف المسافة الجمالية:

يقصد بالمسافة الجمالية كل ما يستدعي "تعارضا بين ما يقدمه النص وبين ما يتوقعه القارئ"¹ وعليه فالمعنى الذي يفهم من التعريف أن يكون الحاصل من النص متوقعا فيوجب تجاوزا عوض التعارض، وهذا يسمح للقارئ تحديد موقفه من النص، يتأرجح فيه بين القبول والرفض.

ينبغي التنبيه أن مسألة القبول والرفض لا تنطبق على الخطاب القرآني إلا من جهة قضايا الوعي والفهم، فقبول الخطاب إنما على مستوى الذات مما يدفعه للعمل به، ورفض الخطاب إنما على مستوى الذات أيضا في عدم إدراك مدلوله، وهي انتكاسة بيانية بليغة المغزى توحى بوجود هوة عميقة بين معالم الخطاب القرآني الذوقية وبين مهارات المتلقي السماعية، ثم إن ضبط الحوار بين المتلقي والنص من أهم جوانب الاتصال التي تضمن حد التوافق البياني من الجانبين.

هذان الجانبان . المتلقي والنص . على معادلة صعبة في تحقيق الأهداف البيانية المنتظرة، فقد يفقد المتلقي جهدا وافرا في استجلاء النص وقراءته دون

الوصول إلى إدراك معانيه البيانية و الفنية والجمالية، وقد يصل النص إلى أعلى مراتبه البيانية ولا يصل إلى نفس القارئ، وين الحاجزين يظهر التوقع واللاتوقع أو المنتظر وغير المنتظر، فالأول حماسية لاكتشاف درجة تأثير النص في المتلقي، والثاني كسر جامع لهذه الرغبة في الاكتشاف.

من وظائف الخطاب القرآني:

من الواضح أن الدراسات البيانية للخطاب القرآني قد جعلت من الأسلوب منطلقاً مهماً في ترشيد المتلقي من خلال الوظيفة الانتباهية المسؤولة على تحسس الجمال، ويبدو أن الالتفات كأسلوب قرآني في تلوين الخطاب عمل على إعلاء هذه التجليات، فالانتقال بين صيغة التكلم والخطاب والغيبة يتطلب مرحلة متفوقة من الانتباه لاستشعار الجمال، وهي مسألة اعتمدها البلغاء في تحليل النصوص الأدبية في حال عملهم على تجنيب القارئ مراحل الملل المحتملة، فاعتبروا "التنقل في الألوان الأدبية، والتنويع في استخدام العناصر الجمالية في الكلام، من الأسباب التي تجدد إثارة الانتباه للإحساس بالجمال، وتجدد الاستمتاع بلذة الأدب الجميل، وترفعه إلى مستوى الروائع، وتمنع تسلل الملل إلى نفوس المستمعين أو القراء"².

تعمل الدراسات النقدية في تحديد القيمة الجمالية للأدب على الاحتكام إلى المسافة الجمالية بين أفق النص وأفق المتلقي³، ذاته المعنى يصوغه الجرجاني في أسرار البلاغة عند حديثه عن التمثيل ومواقع تأثيره فيقول: "وهكذا إذا استقرت التشبيهات، وجدت التباعد بين الشبئين كلما كان أشد، كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تُحدث الأريجية أقرب"⁴، ومسائل التشبيهات من أوفر الأساليب التي تناولها الخطاب القرآني.

بعد قرنين من الزمن صاغ القرطاجني في منهاجه مسالكا أقرب إلى معاني الجرجاني، في ثنايا حديثه عن تأثيرات الشعر في النفس فيقول: "وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب. فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها"⁵ وقد أشار الجاحظ في القرن الثالث إلى مسالك التأثير النفسية، وأبدى تحمسا واضحا للحديث عن الإغراب وأثره في استجلاء اللذة الأدبية ومؤكداً: "أن الناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد"⁶،

محمل هذه المعاني تحوم حول حمى نظرية التلقي التي راج مدلولها في نمط هذه الدراسات النقدية، وهي مسألة لها أثرها في بيان القيمة الفنية والأدبية المتوخاة بين القارئ والنص، لكن الحديث عن الخطاب القرآني هو توغل عميق في الأسرار البيانية، وتجعل الحديث عن مسائل الجمالية، وقضايا فهم النص واستنباطه، بحاجة إلى إدراك حقيقي لأسرار الأدب والبيان، وغياب هذه المرحلة يجعل اللوم يقع على عاتق المتلقي فحسب، ولا مكان للحديث عن قصور نص الخطاب القرآني. كتاب العربية الأكبر.

من هذا المنطلق يرد الحديث عن المسافة الجمالية بين المتلقي والنص القرآني حذرا من جهة كمال البيان في الخطاب القرآني، وأن تحليل القضية سيجعل جانب الاهتمام بالمتلقي المتهم الأول في القصور عن فهم الخطاب وبالتالي إدراك المدلول وتحقيق لذة التلقي الأدبية، "فهو الأسلوب الفني الذي يهتم بالجانب النفسي للمتلقي، تؤدي وظيفة انتباهية تقوي عوامل الاتصال بين الجانبين، وترتبط هذه الوظيفة بالسياق ارتباطا مركبا، تحت إثارة الأحداث غير المتوقعة داخل النسيج السردى"⁷

لقد تحدد السياق في القصص القرآني كوعاء فني في إدراك المواقف المفاجأة وغير المتوقعة، سواء بين شخصيات النص ذاته، أو بين النص والمتلقي الخارجي، تظهر هذه المزية الفنية في سورة آل عمران، فالحديث عن امرأة عمران وابنتها مريم، وزكرياء، هو تأكيد لحضور لحظات غير متوقعة بين هذه الشخصيات، "إذ يعتمد السرد في عرض الأحداث على أسلوب تشكيل التوقع لدى الشخصية، ولدى المتلقي ثم القيام بخلخلة هذا التوقع من أجل إثارته"⁸

لم يمهّد السياق القرآني في سورة آل عمران لاجتماع هذه الشخصيات في مسألة الحمل، ولعل إدراكا واعيا لهذه المسألة كما يدفع إلى استلهاهم براعة النص في جمعهم تحت مسمى آل عمران، ثم جمعهم في موقف الحمل هذا، يدفع أيضا إلى توقع التشابه في الأحداث، لكن التفريق بينهم في طريقة الحمل سيكسر هذا التوقع بمجرد وقوعه.

يظهر انكسار التوقع بداية من شخصية امرأة عمران التي يظهر السياق جرحتها على مولود ذكر ونذرنا إياه للسدانة، في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁹، لكن المفاجأة تثبت عكس ذلك، إذ كان المولود غير متوقع، ولقد انكساراً نفسياً في أعماق السيدة مريم ورضي بقضاء الله وقدره، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾¹⁰، هذا الانكسار النفسي للتوقع سيكون حاكماً لتجري الأحداث في القصة، يتعدى أهبة المتلقي لمعرفة مدى التزام المولود الذكر بقضايا السدانة والعبادة، إلى مستقبل السيدة مريم المولود الأنثى، ومهمة السدانة أقرب إلى تكاليف الرجال من النساء بحسب الطبائع والجلبة، وكما كانت المفاجأة بالنسبة لامرأة عمران وهي المتلقية الأولى للحدث، ستكون بالنسبة للمتلقي الخارجي للنص.

قال الزمخشري: "فإن قلت: فلم قالت: إني وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول؟ قلت: قالته تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها، فتحزنت إلى ربما لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً، ولذلك نذرتة محرراً للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى والله أعلم بما وضعت تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بقدر ما وهب لها منه. ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظام الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً، فلذلك تحسرت"¹¹.

يعمل السياق القرآني في المرحلة الثانية على إبراز شخصية زكرياء، بعدما شاهد قدرة الله تعالى في مريم من جهة رزق الولد و رزق العيش، ذاك حين نقرأ قول الله تعالى: ﴿هَنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾¹²، قال صاحب البحر المحيط: "هذه الجملة شرح للدعاء وتفسير له، وناداه بلفظ: رب، إذ هو مربيّه ومصالح حاله، وجاء الطلب بلفظ: هب، لأنّ أهبة إحسان محض ليس في مقابلتها شيء يكون عوضاً للوهاب، ولما كان ذلك يكاد يكون على سبيل ما لا تسبب فيه: لا من الوالد لكبر سنّه، ولا من الوالدة لكونها عاقراً لا تلد،

فَكَانَ وجوده كَأُلُوجُودٍ بغيرِ سببٍ، أُنِي هبةٌ مُحَضَّةٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: مَنْ لَدُنْكَ، أَيُّ مِنْ جِهَةٍ مُحَضٍّ قُدْرَتُكَ مِنْ غَيْرِ تَوْسُطِ سَبَبٍ¹³. ولأن طلب زكرياء خالف توقعات القارئ¹⁴ أيضا فقد كان لشدة لهفته على تحقيق البشرى ولدهشة المفاجأة في نفسه راح يطلب إلى ربه أن يجعل له علامة يسكن إليها¹⁵ في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسِحِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾¹⁶ والحق أن هذه خطوة أخرى في استحضار اللاتوقع وكسر التوقع، إذ يبعد أن تكون آية الصمت هي العلامة المنتظرة، في الوقت الذي يحتاج فيه زكرياء إلى تدليل وبيان حجة باللسان، فوردت العلامة متطابقة مع غرابة الأحداث في القصة من البداية.

يشهد السياق القرآني مرحلة أخرى من مراحل انكسار التوقع في القصة، لنتنقل مواقف التسليم لغير المتوقع من شخص امرأة عمران إلى شخص ابنتها مريم التي انتقل السياق معها إلى مرحلة متقدمة جدا من المفاجأة، لا ترتبط بالذكر أو الأنثى بل بالحمل في ذاته، ولم يكن منتظرا بالطريقة التي حصل بها، ورغم كونه بشرى إلهية في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾¹⁷، إلا أنه استدعى تعجبا محضاً بحكم الطبيعة البشرية، في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾¹⁸، وبين الأمرين تلتزم السيدة مريم بالرضا في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾¹⁹.

ذاته الأمر تشهد قصة النبي يوسف، التي يبقى القارئ على أهبة الاستعداد حيال متابعة بدايتها، فحين نقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾²⁰ ينعقد التوقع بالأذى الذي ينتظر يوسف من طرف إخوته، ومتابعة السياق تولد رغبة في اكتشاف طبيعة الأذى الذي تحدث عنه السياق، ثم يتنامى التوقع ليضمن المسافة بين النص وبين ما ينتظره القارئ، حين يرد طلب الإخوة اصطحاب يوسف ولعلها اللحظة التي يعتقد القارئ أنها لحظة الأذى المنتظر، والتحذير الأبوي يكشف أن الأذى سيكون خارجيا بفعل أكل الذنب، رغم أن السياق أشار في البداية أنه سيكون من طرف الإخوة.

وبتمام عملية الاصطحاب أضحي التوقع أقرب إلى الحقيقة، غير أنه ينكسر حين يكشف السرد أن الافتراض لم يتم بالفعل، وأن الذي حدث هو افتعال حادثة الافتراض فحسب، ذلك في قوله تعالى على لسان الإخوة: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾²¹ ، ثم يفاجأ المتلقي بحدث جديد وهو إلقاء يوسف في البئر لا افتراضه المزعوم، وبهذا المنحى البياني والبنائي للقصة تتحقق الإثارة الفنية في تفاعل عنصر المفاجأة مع عنصر التشويق²²، بل تزداد المسافة الجمالية إثارة بين القارئ وأحداث القصة حين يكشف السياق أن الذي حدث بعد عملية الإلقاء في البئر الحقيقية وعملية الافتراض المحتملة من طرف يعقوب والمزعومة من طرف الإخوة، هو الاحتمال الثالث الذي تحدّث عنه السياق بداية في طبيعة الأذى الذي سيلحق بيوسف وهي: القتل أو الطرح في مكان من الأرض²³ أو الإلقاء في غيابات الجب تلتقطه بعض السيارة، وهذه الحلقة الأخيرة هي التي كشف عنها السياق في حين لم تكن من توقعات القارئ في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾²⁴ المسافة الجمالية والقطع المفاجئ:

هي مرحلة أخرى بين شخصيات الحدث في القصص القرآني، تدفع القارئ إلى تقبل الظهور الغير متوقع للشخصية الجديدة، ويحاول في آن واحد بلورة دورها في خضم الأحداث، مستصحبا قي ذلك الذوق الفني في أسلوب عرضها، كما يلاحظ أن الشخصية الجديدة الغير منتظرة تستقل بمجموعة من الآيات تقارب عدد الآيات التي سبقتها، وهي لطيفة قرآنية تبرز أنّ الشخصية تمتلك أهميتها في الأحداث، على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾²⁵ ، فالسياق كان قد عود القارئ على أربعة أحداث كاملة قبل هذه الآية، وهي خلافة آدم في الأرض . تعليمه الأسماء . سجود الملائكة له . ثم تكبر إبليس، ثم أظهر شخصية حواء في موقف مفاجئ يدفع بالسياق إلى الاندماج مع العرض الجديد واستقلت الشخصية الجديدة

بأربعة آيات كاملة تناولت سكنى الجنة، والأكل منها، والنهي عن الأكل من الشجرة... إلخ

لا تختلف هذه النقلة الجمالية في سورة الأعراف، إذ استقلت أحداث آدم وإبليس بثماني آيات كاملة، ثم تظهر شخصية حواء فجأة واستقلت بسبع آيات كاملة، لكن السياق القرآني لا يترك المتتبع يجعل هذا الحكم عاما في مختلف أحداث القصص القرآني الأخرى، ويعمد إلى تنويع هذا الطرح من خلال إظهار جزء غير متوقع قد يستقل بآية واحدة تكون هي الحل في عقدة الأحداث السابقة، فحديث القرآن في قصة طالوت وجالوت لا تدع الآيات²⁶ الخمس في سورة البقرة أدنى شك في أن المعركة ستكون بين الرجلين، وتنتهي بينهما، لكن شخصية داود ستكون الفصيل بينهما، حين قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾²⁷ ولم يتجاوز السياق إلى غيره من الآيات في السورة.

يلمح البقاعي إلى لطيفة بيانية عالية المستوى في هذه النقلات النوعية والفنية والجمالية في السياق القرآني التي كان لها غرض مغاير في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم تتماشى في مجموعها مع مقاصد السياق أهمها: "تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم، في مخالفة قومه له وعدم استجابتهم وشدة أذاهم وإنذار قومه أن يحل بهم ما حلّ بهذه الأمم من العذاب، وقصص من عدا قوم لوط مشابهة لقصة قريش في الشرك بالله والأذى لعباده المؤمنين، وأما قصة قوم لوط فزائدة عن ذلك بأمر فظيع عظيم الشناعة شديد العار والفحش فعدل عن ذلك النسق تنبيهاً عليه تحويلاً للأمر وتبشيعاً له، ليكون في التسليّة أشد، وفي استدعاء الحمد والشكر أتم، وحينئذ يترجح أن يكون العامل ﴿أذكر﴾ لا ﴿أرسلنا﴾ أي واذكر لوطاً وما حصل عليه من قومه زيادة على شركهم من رؤيته فيهم هذا الأمر الذي لم يبق للشناعة موضعاً، فالقصة في الحقيقة تسليّة وتذكير بنعمة معافاة العرب من مثل هذا الحال وإنذار لهم سوء الحال"²⁸.

المسافة الجمالية وقضايا الغيب:

في معرض طروحات التوقع واللاتوقع في السرد القصصي، يظهر الغيب متحكماً في توجيه الأحداث، فقصة سيدنا موسى عليه السلام مع فتاه سيكون

القارئ إزائها أمام حدود يجب التزامها تتضمن إدراكا للمنتظر من الأحداث، فمن خلال قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾²⁹ سيكون القارئ أمام احتمالين: إما عدم طرح الأسئلة، أو اعتماد طرحها لسبب أو لآخر، ولأن "القوى الغيبية تتحكم في القصة منذ نشأتها"³⁰، تتناسب هذه القوى مع وقوع أحداث غريبة غير متوقعة ولا منتظرة، والطريف أن الاندهاش الذي ولدته هذه الأحداث اشتركت فيه شخصية موسى الذي لم يتمالك نفسه في طرح الأسئلة رغم وعده بذلك: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾³¹ ، مع شخصية المتلقي الذي يكاد يتملكه اليأس، فلا يكاد يكشف عن المسؤول عن هذه التصرفات العجيبة التي أراد لها الغيب أن تكون كذلك، تمثيلا للحكمة الإلهية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة³²

تزداد هذه القصة في الكشف عن مسافة الجمال الفاصلة بين المتلقي والسياق، ولإرادة التدليل على موقف الاستمرارية في الحدث، استعمل القرآن مصطلح الانطلاق حين قال: "فانطلقا"، وهي توهم بقوة أن الأحداث إلى غير انتهاء، لكن شخصية موسى التي كانت دافعا إلى هذا الانطلاق بموجب الوعد بالصبر من جهة طرح الأسئلة، تكسر هذا التوقع وتكون في ذات القوت دافعا مباشرا أيضا لانتهاء أحداث القصة بموجب الافتراق. وعليه فإن الحديث عن المسافة الجمالية يتكرر في مواقف عديدة في السرد القرآني، وهي فرصة بيانية للمتلقي للكشف عن جماليات القرآن، ورغم أنها مسألة أدبية تفصل بين أفق النص وأفق المتلقي، لكنها مقياس مناسب في الدراسات البيانية للقرآن الكريم.

إن هذه النماذج القرآنية السابقة في قضية المسافة الجمالية، قد تأسست قواعدها في الدراسات البيانية، وظهرت ملامحها في ثنايا القصص القرآني الكفيل بالكشف عن مفاجآت جديدة في كل قراءة جديدة، قد تصل إلى كونها ظاهرة فنية مرموقة في القصص القرآني، وهي بحاجة إلى تحليل وتمييز، لضمان الجمع بين قداسة النص القرآني، وبين خصائصه البيانية والفنية.

- (1) القرآن الكريم على رواية حفص
- (2) موسى رابعة، جماليات الأسلوب والتلقي، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، الأردن، ط1، 2000، ص 93
- (3) الميداني، عبد الرحمان بن حسن حبنكة، دار القلم، دمشق، ط1، 1416هـ، 196م، ج1، ص 72
- (4) يادكار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، دار الزمان، دمشق، ط1، 2010، ص 238.
- (5) عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق، محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ص 130
- (6) أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق، محمد الحبيب بن خوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص 71
- (7) أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، ج1، ص 93.
- (8) يادكار لطيف الشهرزوري، المرجع السابق، ص 241
- (9) يادكار لطيف الشهرزوري، المرجع السابق، ص 241
- (10) سورة آل عمران الآية 35
- (11) سورة آل عمران الآية 36
- (12) جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407م، ج1، ص 356.
- (13) سورة آل عمران الآية 38
- (14) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق، صدي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج3، ص 126.
- (15) يادكار لطيف الشهرزوري، المرجع السابق، ص 242
- (16) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط17، 1412هـ، ج1، ص 395.
- (17) سورة آل عمران الآية 41
- (18) سورة آل عمران الآية 45
- (19) سورة آل عمران الآية 47

- (20) سورة آل عمران الآية 47
- (21) سورة يوسف الآية 5
- (22) سورة يوسف الآية 16 . 17
- (23) يادكار لطيف الشهرزوري، المرجع السابق، ص 244
- (24) يعني على قول الطبري وضعه في أرض بعيدة غير معلومة
- (25) سورة يوسف الآية 19 24
- (26) سورة البقرة الآية 35
- (27) الآيات 246 . 250 من سورة البقرة
- (28) الآية 251 سورة البقرة
- (29) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج7، ص الكهف 2953
- (30) سيد قطب، المصدر السابق، ج4، ص 2281
- (31) سورة الكهف، الآية 69
- (32) المصدر نفسه، ج4، ص 2281